«اللقاء الشيعي»: وطنيون في مضمار مذهبي

حسان الزين (*)

أول ما يلفت الانتباه في «اللقاء الشيعي اللبناني» هو الأشخاص الذين تنادوا إليه، على إيقاع انتفاضة الاستقلال. فهؤلاء يعرفهم اللبنانيون كأفراد وكعلمانيين وكوطنيين لا طائفيين، سواء أكان منهم الذين عملوا ويعملون في السياسة على نحو مباشر واحترافي، أم الذين عبروها، أو عبرت هي في تجاربهم الشخصية والثقافية والأدبية، يوماً ما، ولم يشفوا منها بعد.

هكذا تُطرح لدى النظر في اللقاء وقراءة أسماء أفراده تساؤلات كثيرة، لعل منها: هذا التنوع من الأشخاص الوافدين من تجارب مختلفة ومصادر متعددة وصلت إلى المدينة اللبنانية وضواحيها عشية الحرب الماضية أو قبل ذلك بقليل، ونشطت إبانها، وانتكست وهُمّشت بعدها، ما الذي يجعلهم يجتمعون في إطار واحد، ومن هذا النوع الذي لطالما نبذوه وسفّهوه باعتباره متخلفاً أو طائفياً؟

ما الذي يجعل هذا التنوع يقبل بتأسيس لقاء مذهبي لغاية لبنانية؟

ما الذي يُغري شاعراً متمرداً، مثلاً، في الرجوع إلى انتماء ولَادي (لعلها اللعنة اللبنانية)، ولو كان يتجنب، مع الآخرين بالتأكيد، أن يكون ذاك الانتماء ولائياً؟

ما الحكمة من الرجوع إلى نقطة انطلاق مذهبية لتجاوز المذهب و«تصحيح» صورته، أو صورة أبنائه الذين لم يهدأوا على حال منذ الحلم الشهابي الصدري (السيد موسى) بدمجهم تمهيداً لإنصافهم وتحقيق العدالة؟

أليس غريباً أن «يصمد» هؤلاء الأصدقاء طويلاً «خارج» أطر المذهب والمذهبية ثم يبادروا في ظل تلوّث طائفي قاتل إلى العودة (أو الحجّ) إلى المذهب، وربما في أصعب الظروف التي تشهد تحالفاً أكثرياً (ليست دعوة إلى اليأس)؟ من دون أن يلغي ذلك حقيقة أنهم لطالما كانوا منشدّين، لسبب أو لآخر، إلى «مأساة المذهب»، تارة بعلة الحرمان، وتارة أخرى بعلة مقاومة إسرائيل وقدسية أن «لا صوت يعلو فوق صوت المعركة». هذا الشعار الذي غطى وكمم وأجّل وأبعد وهمّش وقلب الدنيا «الشيعية» رأساً على عقب.

والتحدي العملي الذي يطرح نفسه على اللقاء هنا هو الإجابة عن السؤال التالي: كيف يمكن إقناع شيعي يرى أن الاستقلال الثاني هو هزيمة للشيعة؟ الوضع أشبه بدعوته إلى مرض السيدا، وما هو أبعد من قبول الهزيمة، إلى خدمة الآخرين المنتصرين. فالسلطة الشيعية استطاعت، على وقع إيقاع الدعوات المتكررة إلى الانضمام إلى قطار الاستقلال، أن تعمم «هزيمتها» وترمي بتبعاتها على الطائفة كلها، كما هي الحال دائماً. فالانتصار للحاكم وحاشيته، والهزيمة للجماهير الغاضبة العصبية.

لمَ «برر» اللقاء نفسه بالقول إنه ضرورة شيعية واستجابة سياسية وطنية «لبنانية»، أي للقاء الآخرين ومواكبة تحركاتهم وسياساتهم وخياراتهم وتشكيلاتهم؟ وعليه يبدو اللقاء كتعبير «ضميري»، إذا جاز القول، يستجيب للحظة يصنعها «الآخرون». لكن ذلك يكبل اللقاء والمذهب عموماً بعقدة ذنب واتهام للنفس على تخلّفها عن الجموع تارة، وعلى ما ارتكبته من سلطة وفساد في عصر الوصاية. ففي حين يقول اللقاء إنه ينتفض على الفاسدين ومصادري السلطة ترى تلك العقدة تحمّل النفس ما فعله الآخرون من فاسدين ومتسلطين. وهذا يحتاج إلى إعادة نظر وقراءة ... وتوضيح. والأهم من ذلك هو أن هذه العقدة تخاف أن ينقلب الاختلاف حرباً، وتنظر إلى نفسها في مرآة ترى فيها الآخرين، سواء أكانوا من المذاهب الأخرى «الأكثر تقدماً»، أم أبناء المذهب «الأدنى درجة الذين وضعتهم الحروب والسرقات، وما إلى ذلك، في أعلى الهرم». ولا بد هنا من مناقشة ما إذا كان الفساد والسلطة «شيعيين»، أم أنهما من طبيعة النظام الطائفي الذي من إنجازاته أيضاً «عودة» كل لبناني إلى مذهبه.

هنا لا بدّ من التوقف عند فارق غير سهل بين طبيعة أعضاء «اللقاء الشيعي اللبناني» وبين الآخرين الذين يسعى هذا التجمّع إلى ملاقاتهم. فالفارق فكري واجتماعي وتاريخي. وأعضاء «اللقاء الشيعي» في معظمهم، كما في خطابهم، ميالون إلى تحرّكات وتشكيلات وطنية، بينما معظم الآخرين يخافون من «المحافظة» التي تضمّ أطيافاً ومذاهب عدة. وأعضاء «اللقاء الشيعي» لجأوا إلى هذا النوع من اللقاءات اضطراراً وعلى مضض أولاً، وثانياً كي لا يفتقد الاستقلال ركناً أساسياً هو الشيعة الذين أسهموا إلى حد كبير في رسم بعد المقاومة في صورة لبنان الجديد. وربما ثالثاً، لمنع أي إحباط شيعي وما يقتضي ذلك من «تطبيع مذهبي» على الأقل في الوسائل. أما اللقاءات الأخرى فهي أوسع إطار لبناني يمكن أن يجتمع فيه أولئك الوجهاء، وقد بادروا إليه باكراً ولهم بالتأكيد حق الملكية الأدبية. باختصار، إذا كان «اللقاء الشيعي» يرمم أو يسد ثغرة، فإن اللقاءات الأخرى مساهم أساسي في بناء الشقق المفرزة على طريقة المقاولات اللبنانية المملوءة ثغرات وحفراً...

وعلى ما يبدو فإن استراتيجية تحالف «اللقاء الشيعي» تستهدف اللقاءات تلك، ومن منطلق المشاركة الصادقة.. والوطنية الديمقراطية. لكن مقابل ذلك فإن اللقاءات الأخرى رب من عمل صفقات فوقية. ونحن أمام استحقاقات، مما يعني أنها مرشحة، «لغايات انتخابية وأهداف وطنية»، إلى التحالف مع «أركان المذهب وقوته الضاربة»، مما يجعل «اللقاء الشيعي» بدوره مرشحاً ليكون الضحية، و«يطلع من المولد بلا حمص». وهذا أكثر ما يؤذي الديموقراطيين والوطنيين هنا وهناك.

وإذا لم يحصل ذلك عند الانتخابات، وهذا وارد، فإن السؤال يُطرح بعد ذلك على «اللقاء الشيعي» الذي «تنازل» أعضاؤه حين أقبلوا على لقاء بلون مذهبي واحد بينما هم ديموقراطيون و«لبنانيون»: ما الجامع بيننا وبين اللقاءات المذهبية؟ فالاختلاف أكبر من سياسي، إنه بنيوي. وما هو اضطراري مرحلي بالنسبة إلى «اللقائيين الشيعة» هو خيار حر واستراتيجي لدى اللقاءات الأخرى. فالحراك «الشيعي» والأرصدة الشخصية والجماعية «للقائيين» يجعلانهم في سعي إلى اللقاء مع بعض «الاستقلاليين»، لا بهاجس سد الثغرة الشيعية وإنما بهدف بناء وطني.

لم تنته بعد تداعيات التغييرات السوسيولوجية التي شهدها لبنان، والطائفة الشيعية منه. وليس «اللقاء الشيعي اللبناني» اليوم، على ما يبدو تأسيساً على «طبيعة» الأشخاص الذين تداعوا إليه، انتقاماً أو ثأراً أو وضعَ حدٍّ ما لمسار طويل عريض. فالتهميش والإقصاء اللذان عانت منهما فئات متعددة ضمن الطائفة الشيعية في ترسيمها المتجدّد بعد الحرب، لا بد أن تظهر «عوارضهما» في هذه اللحظة «الاستقلالية» من تاريخ لبنان، خصوصاً أن ما أصاب تلك الفئات أصاب غيرها ضمن الطوائف الأخرى. وليس غريباً أن تظهر العوارض تلك أولاً عبر هذه الفئات التي بادرت سريعاً. فهذه الفئات من المكوّنات التي دفعت، على نحو شخصي حيناً وأسري أو عائلي أحياناً، ثمن خيارات سياسية وعقائدية بدت للحظات عديدة من «الزمن الشيعي» خيارات جماعية، سواء أكان على الجبهة «القومية» (الحدودية)، أم على محور التغيير الاجتماعي ورفض الحرمان... واللقاء مع الإخوان في الوطن. فقد وجدت تلك الفئات نفسها، قبل عقود، بلا خيارات متنوّعة أو إمكانية اقتراح خيارات خاصة تطلع من الواقع، فانشدّت إلى تشكيلات سياسية وعقائدية متغذية من الحرمان و«النزعات المادية» والثورية في تراث أبناء تلك المنطقة أو إخوتهم في الدين والجهاد.

وإذا كانت فئات اللقاء اليوم من رواد «الانتماء» إلى تلك التشكيلات والعقائد التي لم تحصر نفسها في مذهب أو منطقة أو وطن حتى، فإنها أيضاً، وذاك من مركبها ومن فعل التغييرات السياسية والاجتماعية والثقافية، هي من رواد «نقد» تلك التجارب أو «الخروج» عنها، وقد «دفعت ثمن» حراكها ذاك بوصفه خيارات شخصية وعائلية عندما باتت تلك الانتماءات انفصاماً وعبئاً على المحرومين والمقاومين، بينما كان ذاك الحراك أقرب إلى التعبير الجماعي والمذهبي أيضاً. وقد ترافق في مقدماته وعقده مع تغييرات لا تقل عن نتائج زلزال، اقتصادياً طبقياً، كانتقال الرأسمال المالي والعلمي، على سبيل المثال. فقد صعدت فئات وجماهير وتداعت عائلات ومقامات و«بكوات». هذا، بالضبط، ما أحرج وزعزع الترفع الطبقي عن توسّل الدنيا في نيل المكاسب والكراسي، الذي تتغنى به سلالات وعائلات شيعية إما بفضل ارتباط نسب «بأشرف الخلق»، وإما بفعل الزهد المتمثل بالتقشف الاقتصادي والسياسي وبالتطرّف إلى القيم والتشكيلات الريفية، و«بنكران الذات» الذي مورس انتساباً إلى أطر حزبية وعقائدية وثقافية «خارجة عن» المذهب، بل هي أشبه بعلاج منه، في أحيان كثيرة. فالترفّع هذا لم يصمد أمام الإقصاء والتهميش اللذين رأى فيهما البعض اغتيالاً شخصياً أو عائلياً أو زعامتياً أو اقتصادياً... الخ. هنا بدا الترفّع هذا كذبة أو «مزحة» أو خياراً باهظ الثمن، كالصمت أو الالتحاق بالسلطة أو الهجرة. وإذا استطاع كثيرون الصمود والارتقاء بالترفع هذا إلى حد السلوك، فإن كثيرين أيضاً عبروا بهذا الشكل أو ذاك عن التململ منه أو رفضه. ووجدوا بين حين وآخر مناسبات (الانتخابات مثلاً، أو الأدب والإعلام) وأطر سياسية وثقافية واجتماعية (جمعيات ومنتديات وأحزاب ومحميات فردية وعملية).

لذا يبدو طبيعياً أن يكون من بادر إلى اللقاء هم من ثلاثة مصادر رئيسية في الحراك الشيعي:

- عائلات دينية ثقافية واجتماعية جعلتها الأحداث والحروب والأحزاب المذهبية والضواحي... في الصفوف الخلفية من مشهد الطائفة والبلد.

- عائلات سياسية، أو «أجنحة» منها تمردت عليها في زمنها الإقطاعي. لكن تلك العائلات - الأجنحة لم تنل فرصتها مع انتكاسة «المشروع الوطني»، وتكررت مأساتها مع محاصرة مشروع الإنماء والاعمار، وسيادة الوصاية.

- أفراد حققوا حضوراً ثقافياً ونجاحاً أكاديمياً و(تالياً) كيانات اجتماعية، متجاوزين الرصيد المحدود لأسرهم وبيئاتهم الأولى.

(*) كاتب لبناني

السفير، ٩ أيار ٢٠٠٥